الفصل الأول

حياته، ومؤلفاته، ومكانته

مُقَدِّمة

هو محمد بن إبراهيم، المعروف بصدر الدين الشيرازي، من أبرز فلاسفة الإسلام المتأخرين الذين ظهروا في فارس.

وهو من المفكرين الذين قُدِّر لاسمهم أن يلمع، ولفكرهم أن ينتشر، وخاصةً في السنوات القليلة الماضية بعد أن لَفَتَ أنظار العديد من الباحثين في مجال الدراسات الفلسفية، أمثال: المستشرق الفرنسي المعروف هنري كوربان **Henri Corbin**، والمستشرق الألماني **Max Horten**، وغيرهم ممن كان لهم الفضل التعريف بفلسفة صدرا.

وعلى الرغم من أن الشيرازي ظلَّ حتى وقت قريب مجهولًا تمامًا خارج بلاده، فإنه وجد داخل إيران العديد من التلاميذ والأتباع الذين تمثلوا مقاصده، وانشغلوا بإحياء فكره على مدى ما يقرب من ثلاثة قرون ونصف مضت، اجتهدوا خلالها في نشر دروس وأعمال صدر الدين الشيرازي، أو كما يلقبونه «بالملا صدرا»، و«الأخوند»، و«صدر المتألهين»، وتعني جملة هذه الألقاب أنه كان يُعرف بينهم بلقب المعلم، أو الأستاذ الأول بين الصوفية.

أولًا: حياته

يمكن أن نقسِّم حياة الشيرازي إلى ثلاثة أدوار أساسية هي:

١ - دور الطفولة والتثقيف في شيراز وأصفهان.

٢ - دور الزهد بالقرب من مدينة قم الإيرانية.

٣ - دور التدريس والكتابة التي أتى نتيجة الدورين الأولين[١].

١ - دور الطفولة والتثقيف في شيراز وأصفهان

يعدُّ هذا الدور بمثابة رحلة التحصيل التي قطعها الشيرازي في طلب العلم، ويبدأ هذا الدور في مدينة شيراز التي نشأ فيها، وتلقى بها بعض الدروس المبكرة، ثم انتقاله بعد ذلك إلى مدينة أصفهان سعيًا وراء طلب العلم.

(أ) نشأته في شيراز

وُلِدَ محمد في مدينة شيراز، إحدى المدن الهامة الواقعة في وسط بلاد فارس، وذلك في عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م على وجه التقريب، وهو ينحدر من أسرة أرستقراطية ذات أصل عريق في النسب والشرف، فوالده إبراهيم الشيرازي سليل عائلة القوامي الشهيرة في شيراز، والذي قيل: إنه تولى منصب الوزارة في مقاطعة فارس -إحدى الولايات التابعة لدولة الصفويين[٢] مما أعطاه مكانة اجتماعية هامة في مدينته مسقط رأسه، وقد مكَّنه ثراء

---

(١) Sharif, M.M: A History of Muslim philosophy. Harrassowit, Wiesbadem 1963. Vole II, 936P.

(٢) هادي العلوي: نظرية الحركة الجوهرية عند الشيرازي، بيروت، دار الطليعة، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣، ص٢٢.

أسرته من التفرغ للدراسة منذ صغره؛ حيث اختار له والده مهذِّبًا حاذقًا لرعايته ما أن ظهرت عليه أمارات الذكاء الذي كان يوجه إيَّاه إلى دروسه المبكرة التي تلقاها في مدينة شيراز[1].

(ب) رحيله إلى أصفهان

لم يستمر مُقَام صدر الدين كثيرًا في مدينة شيراز؛ حيث إن نفسه لم تكن لتقنع بتلك الدروس الأولية التي تلقاها في مدينته، لذلك دعاه طموحه العلمي ورغبته في التعرف على العلوم العقلية إلى التوجه إلى مدينة أصفهان التي كانت في ذلك الوقت مركزًا هامًّا من مراكز العلم في فارس وملتقى لكبار العلماء والحكماء، وكان الطلاب يقصدونها من كل مكان، وقد أتم تحصيله فيها على يد اثنين من كبار الأساتذة الذين ذاع صيتهم في غصون العهد الصفوي في فارس، هما الشيخان: العاملي، والداماد.

أما الأول: فهو الشيخ بهاء الدين العاملي (ت ١٠٣٠هـ) من أكبر فلاسفة العلوم العقلية في ذلك الوقت، وعنه أخذ المُلا صدرا العلم من فلسفة وكلام.

والثاني: فهو محمد باقر بن محمد الإستراباذي (ت ١٠٤٠هـ) المعروف بالنيرداماد، من أكبر وأشهر العلماء في العصر الصفوي، وأحد ممثلي الفلسفة الإشراقية الشيعية الذين تأثر بهم صدرا.

والحق أن الشيرازي إلى جانب ما استفاده من هذين المعلمين الجليلين كان لديه نهم شديد إلى قراءة كتب السابقين عليه من فلاسفة اليونان والإسلام وأهل التصوف وعلماء الكلام، لذلك كان ينفق الكثير من ماله على شراء الكتب التي تضم آراءهم، وسوف يظهر لنا بوضوح أثر فكر هؤلاء جميعًا على فلسفة الملا صدرا.

---

(١) الزنجاني: الفيلسوف الفارس الكبير صدر الدين الشيرازي، حياته وشخصيته وأهم أصول الفلسفة، دمشق، مطبعة المفيد، سنة ١٩٣٦م، ص٧.

٢- دور الزهد

يبدو أن الشيرازي بعد أن أتم اجتيازه لرحلة التحصيل والدراسة في مدينة أصفهان قد ساوره شعور قوي يدعوه إلى اعتزال الناس، والعزوف عن الدنيا والانقطاع إلى الله، لذلك رأى أن يغادر مدينة أصفهان متوجهًا إلى قرية صغيرة بالقرب من مدينة قم الإيرانية تسمَّى بقرية كهك عاكفًا فيها على الرياضة والمجاهدة وتهذيب النفس، وذلك على عادة الصوفية، وقد قضى بها أمدًا يتراوح ما بين عشرة أعوام وخمسة عشر عامًا[1] بعيدًا عن التدريس والتأليف.

يجدر بنا هنا أن نتساءل: ما السبب الذي دعا الشيرازي إلى الاعتزال بكهك طوال هذه المدة؟ وما النتائج التي أسفرت عنها تلك التجربة في النهاية؟

يمكننا أن نستنتج من كلام الشيرازي سببًا رئيسيًّا دعاه إلى الانسحاب من الحياة الاجتماعية العامة مرتكنًا إلى التأمل بكهك، وذلك كما جاء على لسانه في مقدمة كتابه «الأسفار الأربعة»؛ إذ يقول:

«وقد ابتلينا بجماعة غاربي الفهم، تعمش عيونهم من أنوار الحكمة وأسرارها، تكل بصائرهم كأبصار الخفافيش عن أضواء المعرفة وآثارها، يرون التعمق في الأمور الربَّانية والتدبر في الآيات السيجانية بدعة، ومخالفة أوضاع جماهير الخلق من الهمج والرعاع ضلالة وخدعة.. فأصبح الجهل باهر الريات، ظاهر الآيات، فأعدموا العلم وفضله، واسترذلوا العرفان وأهله، وانصرفوا عن الحكمة زاهدين، ومنعوها معاندين، ينفرون

(١) اختلفت المصادر في تحديد الفترة التي قضاها صدرا في اعتزاله، فعلى سبيل المثال تذكر دائرة المعارف الفلسفية أنه قضى بها عشر سنوات Encyclopedid of philos ophy vol.5 Mulla Sadra 412p، بينما ورد في دائرة المعارف البريطانية أنه مكث بكهك قرابة خمسة عشر عامًا. The New Encyclopedia Britannica Vol, 8, Mulla Sadra. 405p

الطباع عن الحكماء ويطرحون العلماء العرفاء والأصفياء..»[١].

وبعد أن يصف الشيرازي سوء حال أهل عصره، وأثره الشديد على نفسه، يضيف قائلًا:

«... فلما رأيتُ الحال على هذا المنوال من خلو الديار عمن يعرف قدر الأسرار وعلوم الأحرار، وأنه قد اندرس العلم وأسراره، وانطمس الحق وأنواره وضاعت السير العادلة، وشاعت الآراء الباطله، ولقد أصبح عين ماء الحيوان غايرة، وظلت تجارة أهلها بايرة، وأبت وجوههم بعد نضارتها باسرة، والت حال صفقتهم خائبة خاسرة، ضربتُ عن أبناء الزمان صفحًا، وطويت عنهم كشحًا، فألجأني خمود الفطنة وجمود الطبيعة لمعاداة الزمان وعدم مساعدة الدوران، إلى أن انزويت في بعض نواحي الديار، واستترت بالخمول والانكسار، منقطع الآمال منكسر البال، متوفرًا على فرض أؤديه وتفريط في جنب الله أسعى في تلافيه لا على درس ألقيه، أو تأليف أتعرف فيه...» [٢].

لا شك إذن أن الداعي الرئيسي الذي دفع به إلى الاعتزال بكهلك هو ضيق صدره بجهل أهل زمانه، وكثر شكواه من محاربتهم لأهل العلم، ولا سيما شكواه من رجال الدين التقليديين من الشيعة، والذين كانوا أشد هجومًا عليه؛ إذ لم يرتضوا منهج التأويل الصوفي الذي كان يتبعه صدرا، لذلك كثيرًا ما كان يلجأ إلى أسلوب التقية والكتمان خوفًا من بطشهم.

هذا عن السبب الرئيسي الذي كان وراء اعتزال الشيرازي بالقرب من مدينة قم الإيرانية، أما عن أهم النتائج التي أسفرت عنها تلك التجربة فهي اثنتان:

الأولى: التخلص من مرحلة الشك التي مرَّ بها في حياته، فقد عاش الشيرازي حياة

---

(١) صدر الدين الشيرازي: الأسفار الأربعة، طهران، طبعة حجرية في مجلد سنة ١٢٨٢هـ ص٢٨.

(٢) المصدر السابق، ص٢، ٣.

المتكلم والفيلسوف لفترة من حياته، ولكنه كان ينشد الوصول إلى طريق آخر ربما يجد فيه خلاصه، وقد وجد هذا الطريق أخيرًا في خياة أهل التصوف، ويؤيد صدرا ما ذكرنا بقوله:

«وإني لأستغفر الله كثيرًا مما ضيعت شطرًا من عمري في تتبع آراء المتفلسفة والمجادلين من أهل الكلام، وتدقيقاتهم، وتعلم جربزتهم في القول، وتفتهم في البحث؛ حتى تبين لي آخر الأمور بنور الإيمان، وتأييد الله المنان أن قياسهم عقيم، وصراطهم غير مستقيم»[1].

وهكذا انكشف له بعد طول الخلوة والتأمل والمجاهدة أن طريق الصوفية هو طريق الحق، ويذكرنا حال الشيرازي هنا بحال الإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ) من قبله؛ إذ سبقه في تفحص عقائد المتكلمين والفلاسفة، وانتهى إلى فسادها، ولاذ في النهاية بأحضان التصوف.

الثانية: حصوله على ملكة الكشف اللدني الناتجة عن الخلوة والتأمل، والتي لا يهبها الله إلَّا للقليل من عباده من أهل الزهد والمجاهدة، وأصحاب الرياضة الروحية، ويحدثنا الشيرازي بأنه أصبح واحدًا من هؤلاء الذين مُنِحوا تلك الملكة، وأنه صار من المقربين الذين كشف الله لهم الأسرار، واختَّصهم بمعرفة الحقائق؛ إذ يقول:

«فأمسكت عناني عن الاشتغال بالناس ومخالطتهم، وآيست عن مرافقتهم ومؤانستهم، واستهلت على معاداة الدوران ومعاندة أبناء الزمان، وخلصت عن إنكارهم وإقرارهم، وتساوى عندي إعزازهم وإضرارهم، فتوجَّهت توجهًا غريزيًّا نحو مسبب الأسباب، وتضرعت تضرعًا جبليًّا إلى سهل الأمور الصعاب، فلما بقيت على هذا الحال من الاستتار والانزواء والخمول والاعتزال زمانًا مديدًا، وأمدًا بعيدًا، اشتعلت نفسي لطول المجاهدات اشتعالًا نوريًّا، والتهب قلبي لكثرة الرياضات التهابًا قويًّا، ففاضت

(١) المصدر السابق، ص٣.

علينا أنوار الملكوت، وحلت بها خبايا الجبروت، ولحقتها الأضواء الأحدية، تداركتها الألطاف الإلهية، فاطلعت على أسرار لم أكن أطلع عليها إلى الآن، وانكشف لي رموز لم تكن منكشفة هذا الانكشاف من البرهان، بل كل ما علمته من قبل بالبرهان عاينته مع زوائد بالشهود والعيان»[1].

ومهما يكن فإن هذا الدور الذي لدينا عنه القليل من التفاصيل عني فيه الشيرازي بممارسة الأعمال الروحانية مُنشغلًا بتزكية نفسه، ومجاهدتها، وتصفية قلبه تقربًا إلى الله مما ساعده على تعميق تجربته الإشراقية، وتوصله إلى كثير من المعارف و الحقائق عن طريق الفيض الإلهي.

٣- دور التدريس والتأليف

عاد الشيرازي من جديد إلى ممارسة الحياة العامة في الدور الأخير من حياته، وهو دور التدريس والتأليف الذي أتى نتيجة الدورين الأولين، فقد أرسل في طلبه حاكم شيراز؛ وذلك للتدريس في مدرسة الأهوردي خان التي شيَّدها الحاكم، وقد استجاب صدرا لطلبه مفضلًا العودة إلى مسقط رأسه؛ ليقضي بقية حياته في التدريس والكتابة.

ومن أهم معالم هذه الفترة أن العداء بين الشيرازي ورجال الدين التقليديين من الشيعة، والذي كان كما سبق أن ذكرنا آنفًا —السبب الرئيسي الذي دعاه إلى الاعتزال، هذا العداء لم ينقطع، بل ازدادت حِدَّته وبلغ ذروته في الفترة الأخيرة من حياته، حتى إنهم وصفوا دروسه بأنها ضالة وكافرة، وقد اضطهدوه وكان من حُسن طالعه أنه كان ينتمي إلى عائلة ذات نفوذ وسلطان، مما سمح له بالاستمرار في الكتابة[2].

غير أن عداء من نوع آخر ظل مستمرًا مع الشيرازي حتى سنواته الأخيرة، ونقصد به

---

(١) المصدر السابق، ص٣.

(٢) The New Encyclopedia Britannica VOL 8.405.

ذلك العداء الذي كان بينه وبين قيود المادة وشهوات النفس، فهو لم يكن ليحيد عن الطريق الذي سبق أن خطَّه لنفسه، فما زال يجاهد نفسه متقربًا إلى الله، حتى قيل: إنه حج إلى مكة سبع مرات ماشيًا على قدميه، ومات بالبصرة عام ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م وهو في طريق عودته من مكة بعد أن أتم حجته السابعة[١].

٤- العصر الصفوي

عاش الشيرازي حياته تحت ظل سيادة الدولة الصفوية، والتي شهدت فارس في عهد ملوكها الكثير من الأحداث والصراعات الهامة، من بينها تلك الأحداث التي وقعت عقب تولي الشاه إسماعيل الأول أمور الحكم، فقد عمل جاهدًا على نشر مذهب الشيعة الإمامية، وجعله مذهبًا رسميًّا للدولة حتى إن أول خطوة خطاها إسماعيل في تبريز أنه ذكر أسماء الاثني عشر إمامًا في خطبته، ولعن الخلفاء الثلاثة الأوائل: أبا بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم على الملأ، وقد جرت في عهده مذابح وإعدامات جماعية، وتعذيب شديد لأهل السُّنَّة في أصفهان، وشيراز، وكازرون، ويزد، وسائر المدن الأخرى إلَّا أن قسمًا كبيرًا من فقهاء السُّنَّة تحولوا إلى المذهب الشيعي، فأنقذوا أرواحهم من تلك المذابح، وتولى فقهاء الشيعة، أو من اعتنق التشيع من الفقهاء المناصب والإرشاد[٢].

ولا جدال أن مثل هذا العداء لأهل السُّنَّة قد جرَّ الكثير من المتاعب على إيران، وكان سببًا في تمزيق العلاقات بين إيران وبعض الدول الأخرى السُنِّيَّة المذهب، مثل: العثمانيين، والأوزبك، وقد استمر هذا العداء حتى في عهد طهماسب الذي خلف أباه إسماعيل، وحفلت مدة حكمه بالحروب المتصلة ضد أعدائه الأوزبك في الشرق والعثمانيين في

---

(١) Encyclopedia of philosophy vol 5-412p.

(٢) بطروشوفسكي: الإسلام في إيران -قدَّم له وترجمه وعلق عليه- د. السباعي محمد السباعي، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م، ص٣٧٢، ٣٧٦.

الغرب[١].

وفي إبان ولاية الشاه عباس الذي تولى حكم البلاد أكثر من أربعين عامًا (١٥٨٨-١٦٢٩م) شهدت إيران تحولًا بارزًا؛ حيث عقد صلحًا مع العثمانيين في مطلع حكمه، وتفرغ بعدها للاستقرار في داخل مملكته ووقايتها من عدوان الأوزبك، وعقد معاهدة مع الإنجليز تمكن بموجبها وبمساعدة الأسطول الإنجليزي من الاستيلاء على هرمز، وبغداد، واسترداد تبريز، ومكَّن للسلطة الفارسية من تعزيز الحدود في الشرق، وأنشأ قاعدة تجارية خلع عليها اسم بندر عباس[٢].

ومن الإنجازات الهامة في عهد عباس نقل عاصمته إلى أصفهان التي استقبلت الكثير من البعثات السياسية في ذلك الوقت، وقد ازدهرت التجارة والصناعة في عهده، كما عُنِي بالفلسفة والعلوم والفقه، وأنشأ بعض المساجد والمعاهد الدينية.

على أن من أبرز السمات التي تميز بها ذلك العصر انتشار روح التصوف بين أهل فارس؛ إذ وجد أرضه الخصبة للنمو فيها، وخاصةً أن ملوك إيران الصفويين أنفسهم كانوا من أهله؛ فالشاه إسماعيل الأول مؤسس الدولة الصفوية، وجدُّه الشيخ صفي الدين -كانا من أهل التصوف، وكان هذا عاملًا أساسيًّا سادت به روح التصوف، وظهر العديد من فحوله في فارس.

على أن هذا الازدهار والانتشار الذي شهده التصوف في ذلك العصر قد قابل هجومًا شديدًا من رجال الدين التقليديين من الشيعة، وذلك على اعتبار أن التصوف إنما يقوم على أساس تأويل نصوص الشريعة، ولا يقف بمنهجه عند حد ظاهرها؛ لذا فقد قُوبِل هذا المنهج بمعارضة شديدة من أهل الفقه، والحديث الذين كانوا مصدرًا لضيق صدر الدين

(١) د. إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر: تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، الرياض، دار المريخ ١٩٨٤م (١/ ١٧٦).

(٢) المرجع السابق، ص١٧٧.

الشيرازي، وسببًا في انفراده منعزلًا بقرية كهيك.

٥- فلسفته

للشيرازي فلسفته ذات طابع خاص مميز به، وقد يبدو لأول وهلة أن فلسفته إن هي إلاَّ مزيج من الحكمة المشائية والتصوف والإشراق والدين، وهذه العناصر وإن كانت متوفرة في فلسفته، ويلاحظها المرء في كثير من المواضع إلا أن نهجه يظل متميزًا محتفظًا بطابعه المتمثل في «الحكمة المتعالية».

ويمكن أن نتبين السمات البارزة في فلسفته في العناصر، والنقاط التالية:

١- جمع الشيرازي بين العقل والذوق وأبدع أيما إبداع، وهذه إحدى آيات عبقريته؛ ذلك أن الجمع بين البرهان والوجدان لم يتأتَ إلَّا لنفر قليل من عظماء الفكر.

يؤكد صدر الدين على ضرورة الجمع بين البرهان والوجدان للحصول على المعرفة الحقة في كثير من المواضع، فمثلًا يقول:

«فالأولى أن يرجع إلى طريقتنا في المعارف والعلوم الحاصلة لنا بالممازجة بين طريقة المتألهين من الحكماء، والمليِّين من العرفاء»[1].

٢- وكما جمع بين الفلسفة والتصوف -جمع بين العقل والنقل أيضًا، ويرى أنهما متطابقان تمامًا، وليس بينهما أدنى تناقض.

يقول صدر الدين:

«... وحاشا الشريعة الحقة الإلهية البيضاء أن تكون أحكامها مصادمة للمعارف

(١) صدر الدين الشيرازي، المبدأ والمعاد، ص٣٨١، ٣٨٢.

اليقينية الضرورية، وتبًّا لفلسفة تكون قوانينها غير مطابقة للكتاب والسُّنَّة»[١].

فالشيرازي سعى بكل جهده إلى أن يوفق بين الدين والفلسفة، وهذا طريق سلكه من قبله معظم فلاسفة الإسلام؛ حيث إن التوفيق بين الدين والفلسفة نال اهتمام الفلسفة الإسلامية إلى حد كبير.

٣- اهتم فيلسوفنا اهتمامًا بالغًا بالميتافيزيقا، والمسائل النظرية البحتة؛ فبحث بالتفصيل عن واجب الوجود وصفاته وأسمائه، وعن الوجود وعوارضه، وعن النفس الإنسانية بنشأتها المتعددة، كما أولى عنايته بقسم من الفلسفة الطبيعية كالحركة والمادة والزمان والمكان، ولكنه لم يهتم بأقسام الفلسفة الأخرى.

فلم يخض في الفلسفة الاجتماعية والسياسية كما فعل أفلاطون والفارابي من قبل، ولم يكترث بقسم من الفلسفة الطبيعية كالآثار العلوية، ومتغيرات الطبيعة كالسحب والأمطار والزلازل، كما فعل أرسطو وابن سينا.

وعدم اكتراثه هذا لم يأت عفوًا، بل هو نابع من نظرة الشيرازي إلى الفلسفة والفيلسوف؛ فالشيرازي يرى أن الفيلسوف الحق هو من اشتغل بالفلسفة وحدها دون سواها من العلوم، حتى إنه عاب على ابن سينا اشتغاله بالعلوم الجزئية -على حد تعبيره- كالطب والموسيقى[٢].

والواقع أن صدر الدين مصيب في رأيه هذا، صحيح أن الفلسفة -خاصة في العصور

---

(١) صدر الدين الشيرازي، الأسفار الأربعة (٨/ ٣٠٣).

(٢) الشيرازي: الأسفار الأربعة (٩/ ١١٩)

وهذا لا يعني أن فيلسوفنا يقلل من شأن العلوم التخصصية، وإنما يرى أن الفيلسوف الحقيقي هو الذي لا يأبه بغير الفلسفة، أما بقية العلوم قد خلق الله لكل منها أهلًا، وليس للرجل الإلهي أن يخوض في غمرتها. المصدر السابق.

السابقة- كانت تشمل كافة العلوم، وكان الفيلسوف أشبه بدائرة معارف، إلَّا أن هناك أمرين يجب أن نأخذهما بعين الاعتبار:

الأول: إن الفلسفة أخذت تفقد بالتدريج شموليتها واستيعابها لكافة العلوم، حتى بدأ التخصص يظهر ولو بصورة جزئية، وذلك قبل عصر الشيرازي.

الثاني: إن الفلسفة الحقيقية هي التي تبحث عن الوجود «ماديًّا كان، أو مجردًا»، وكل ما يتعلق بالوجود من مسائل أخرى، ويدخل ضمن دائرة الفلسفة أيضًا بحث الحركة والتغيير والزمان والمكان... إلخ.

وباختصار فالفلسفة الحقيقية هي التي تبحث عن الأمور النظرية الصرفة، وستظل الفلسفة بهذا المعنى محتفظة بمكانتها مهما تقدمت العلوم، وظهرت تخصصات جديدة.

٤- لم يلتزم صدر الدين بفلسفة محددة، ولم يترسم خُطا فيلسوف معين مهما علا شأن ذلك الفيلسوف، بل لا يتردد في الجهر بمخالفته ونقده وتبيين خطئه فيما لو انكشف له ذلك.

فمثلًا عندما يذكر نظرية المثل الأفلاطونية، ويبرهن عليها يقول عن أرسطو:

«فإن قلت: قد خالفت المعلم الأول؛ حيث يرد على هذا المذهب قلت: الحق أحق بالاتباع»[1]، وقد يدافع عن رأي لفيلسوف مغمور، فيما لو اتضح لديه أنه الحق.

هذا عن خصائص فلسفته، أما عن الآراء والنظريات التي أبدعها، أو التي جلاها وكشف عن غموضها، وأثبتها بالبرهنة العقلية -فكثيرة أهمها: نظرية أصالة الوجود، ونظريته في النفس، واتحاد العاقل والمعقول، والنفس كل القوى... إلخ.

---

(١) الشيرازي: الأسفار الأربعة (٢/ ٦٤).

استطاع فيلسوف شيراز أن يقدم فلسفة متكاملة، متناسقة عن الله والكون والإنسان...، وبذلك تمكن أن يحيي مجد الفلسفة الإسلامية، وأن يضيف دليلًا آخر على أصالة الفكر الإسلامي، ولكن كما لم ينصفه قومه في حياته، ظل كذلك مغمورًا بعد مماته، لا يعرفه سوى نفر قليل من هواة فلسفته، فهو في الواقع «أحد الكبار المجهولين في تاريخ العقل الإنساني»[1].

٦- الينابيع الفكرية للشيرازي

إن محاولة البحث عن الينابيع الفكرية للشيرازي لا تعني أن فيلسوفنا لم يعرف الأصالة والإبداع، بل الغاية هي معرفة الأثر الذي تركه السابقون على فلسفته، وتبيين التيارات الفكرية التي ساهمت في تكوين آرائه ونظرياته.

فالفكر الإنساني حلقة متصلة غير قابلة للانفكاك، يأخذ اللاحق عن السابق، ويتأثر المتأخر بالمتقدم، ثم إن الفكر -كما هو معروف- يتخطى دائمًا حاجزي الزمان والمكان، وفي عملية التأثير هذه قد يضيف الفيلسوف شيئًا جديدًا إلى ما ورائه من الماضين، وقد يتأثر بهذا الفيلسوف أو ذاك، أو بهذه المدرسة أو تلك، ولكن على الرغم من ذلك يظل محتفظًا بشخصيته، ولم نعدم مواطن الأصالة والابتكار في فلسفته.

والحقيقة إن الفيلسوف عندما يتقبل آراء السابقين عليه، ويعيد بعض نظرياتهم -فإنه لا بد أن يكون قد فهمها حسب تفكيره الخاص، وهذا ما يظهر بوضوح عند الشيرازي، ويمكن القول: إن ثمة عناصر رئيسية ثلاث أثرت في فلسفة صدر الدين، وهي:

الدين، والفلسفة، والتصوف، ونستعرضها بإيجاز.

---

(١) انظر: هورتن في مقال له عن الشيرازي في دائرة المعارف الإسلامية، تأليف لفيف من المستشرقين، ترجمة أحمد الشنتناوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، القاهرة، دار الشعب، (١٤/ ٢٤) وما بعدها.

(أ) الدين

من الملاحظ أن فلسفة صدر الدين في تفاصيلها العامة لا تختلف عن جوهر الإسلام في شيء، فخلافًا للفلاسفة يثبت الشيرازي المعاد الجسماني بالبرهنة العقلية، كما يذهب إلى أن الله تعالى يعلم بالجزئيات فضلًا عن الكليات[١] إلى غيرها من المسائل الثانوية.

ويؤكد صدر الدين في كثير من المواضع أن الشرع والعقل متفقان، ولا يكتفي في إثبات نظرياته بالبراهين العقلية، بل يعضدها بالآيات الكريمة والسُّنَّة المطهرة، وكما لاحظ أحد الباحثين بحق فإن «الينبوع الأول لدى الشيرازي هو الدين؛ حيث كان مجالًا واسعًا يستمد منه كثيرًا من آياته؛ ليقيم الدليل على نظرياته»[٢].

«والواقع ليس ثمة استحالة أن يجمع المرء بين العقل وبين الدين؛ لأن الوحي خطاب موجَّه إلى العقل في المقام الأول، والعقل طاقة مهمتها تعقل الدين؛ فكل واحد من الطرفين ينشد الطرف الآخر»[٣].

(ب) الفلسفة

يظهر تأثر الشيرازي بها في الفلسفة الإغريقية والإسلامية، ويبدو أن أفلاطون أكثر تأثيرًا عليه من أرسطو، وسترى لما يتصل منه بالبحث في موضعه.

أما عن تأثير الفارابي عليه فهو أشد من تأثير ابن سينا، ويتمثل تأثير الفارابي عليه في اتحاد النفس بالعقل الفعَّال ومسائل أخرى.

---

(١) الشيرازي: الأسفار الأربعة (٦/ ٢٣٨) وما بعدها.

(٢) د. جعفر آل يس: صدر الدين الشيرازي مجدد الفلسفة الإسلامية ص٤٣.

(٣) د. فيصل بدير عون: الفلسفة الإسلامية في الشرق، مكتبة الحرية الحديثة، جامعة عين شمس، ١٩٨٢م، ص٣٩٥، ٣٩٦.

ويمكن القول: إن تأثير ابن سينا على الشيرازي يتمثل في اتباع الأخير لمنهجية ابن سينا في بعض البحوث الفلسفية، ومسائل أخرى متعلقة بالنفس توسع فيها ابن سينا كثيرًا، ونجد جذورها عند الفارابي.

وقد نلاحظ -وفي نطاق ضيق- تأثر الملا صدرا بالسهروردي، وهذا صحيح، ولكن من الغلو أن تعتبر الشيرازي «أقوى معبر عن النزعة الإشراقية»[1]؛ ذلك أن محور فلسفة الشيرازي هو الوجود وأصالته والتشكيك في حقيقته، بينما تدور فلسفة شيخ الإشراق حول النور والأنوار.

على أن مسائل جوهرية أخرى ميزت بين الفيلسوفين مثل: أصالة الوجود؛ حيث ذهب صدر الدين إلى أصالة الوجود، واعتبارية الماهية خلافًا للسهروردي، ومنها تفسير المثل الأفلاطونية، ومسائل أخرى.

وقد يبدو ثمة تعارض بين تأثر الشيرازي بالدين وبين تأثره بالفلسفة، فإذا كان الينبوع الأول لدى الشيرازي هو الدين كما مرَّ آنفًا -فكيف يفسر تأثره بالفلسفة؟

في الواقع يزول هذا التناقض إذا عرفنا أن صدر الدين تأثر ببعض البحوث الفلسفية كالعلة والمعلول، وأنواع العلل، ومسائل أخرى متعلقة بالحركة وأقسامها، وتعريفات لبعض المواضيع الفلسفية، وأمور أخرى عامة، وهذه كلها لا تمس جوهر الإسلام في شيء، كذلك كالجوهر والعرض، والهيولي والصورة، والوجود والماهية... إلخ. وهذه أيضًا لا تتنافى مع الدين.

---

(١) د. محمد علي أبو ريان: أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى ١٩٥٩م، ص٣٧، وذهب إلى هذا الرأي أيضًا المستشرق الفرنسي هنري كوربان، حيث اعتبر الشيرازي خليفة للسهروردي في النزعة الإشراقية، انظر: كتابه تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة نصير مروة، حسن قبيس، بيروت، منشورات عويدات ١٩٦٦م، (١/ ٣٠٦)، ومواضع متفرقة أخرى.

هذا إلى جانب أن فليسوفنا يرفض النظريات التي لا تتفق مع الدين، فهو يعتقد بحدوث العالم[١] خلافًا لأرسطو الذي قال بقدمه.

وليس أدل على تأثر الملا صدرا بالدين من الفصول المسهبة التي كتبها في آخر جزء من الأسفار، وتناول فيها البعث والنشور، وأحوال القيامة، والصراط، والحساب والميزان، والجنة والنار، وكل ما يتعلق بالنشأة الأخرى[٢].

(ت) التصوف

ترك التصوف بصمات بارزة على فلسفة الشيرازي؛ فما من بحث نظري إلَّا وأردفه بمكاشفة صوفية، وما من فكرة صوفية إلَّا وألبسها ثوب البرهان، ويعتقد الشيرازي أن الفيلسوف مهما بلغت قوته النظرية فإنه لا يمكنه الاستغناء عن الحدث والإلهام، بمعنى أنه لا بد أن يسعفه الكشف والحدث، وتعينه البصيرة لإدراك الحقائق، بل إنه ينتقص من شأن المعرفة المحددة بإطار العقل فقط[٣]، كما يقلل من شأن النهج الصوفي فيما لو تفرَّد المفكر باستعماله غير مستعين بالعقل والبرهان[٤].

ويظهر تأثر الشيرازي بالتصوف بصورة واضحة فيما يتعلق بالأخلاق والسلوك، وكيفية تطهير النفس والعروج الروحي للعبد، ومقاماته وحالاته .. إلخ.

كما يبدو تأثير التصوف عليه في مسائل أخرى، سنتعرض لها خلال البحث.

والجدير بالذكر أن تصوف الشيرازي هو خليط من التصوف السُنِّي والتصوف النظري، إلَّا أن الغالب عليه هو التصوف الفلسفي، رغم تأثره بالصوفية الأوائل.

---

(١) الشيرازي: الأسفار الأربعة (٣/ ١٦٢).

(٢) انظر: نفس المرجع (٩/ ٢٧٧)، وما بعدها.

(٣) انظر: نفس المرجع (٩/ ١٠٨ - ١٠٩)، وما بعدها.

(٤) انظر: الشيرازي، المبدأ والمعاد، تحقيق د. سيد جلال الدين آشتياني، إيران ١٣٩٦هـ، ص٢٦٦.

ثانيًا: مؤلفات الشيرازي

كان الملا صدرا كاتبًا خصبًا؛ إذ ترك لنا ما يقرب من خمسين مصنفًا يمثل حصيلة إنتاجه الفكري، ويدل على سعة اطلاعه وغزارة إنتاجه، كما تشهد بمكانته البارزة بين مفكري الإسلام.

وإذا استعرضنا هذه الأعمال نجد أن الجانب الأكبر منها ينستقل بعرض فلسفته الخاصة، أما الجانب الآخر فإنه يتمثل في شروحه التي وضعها على بعض المؤلفات، ذلك إلى جانب مجموعة من التفاسير على بعض سور القرآن الكريم وآياته.

وقد وضع الشيرازي جميع تصانيفه باللغة العربية ما عدا كتاب الأصول الثلاثة (سه أصل)، إلى جانب بعض الأشعار والرسائل القصيرة التي دوَّنها باللغة الفارسية[1].

١ - أسرار الآيات وأنوار البينات

ويبحث فيه عن إعجاز القرآن الكريم، وأفضليته على سائر الكتب السماوية، والعلم بالله وصفاته وأسمائه... ثم يبحث فيه عن الإنسان ونشأته الثانية، ويدعم آراءه بالآيات الكريمة.

٢ - تفسير قسم من القرآن الكريم

وهو تفسير لبعض السور والآيات الكريمة، ويشتمل على تفسير «فاتحة الكتاب، وجزء كبير من سورة البقرة، وآية النور، وسورة يس، والواقعة، والحديد، والجمعة، والسجدة، والطارق، والأعلى، والزلزلة، والضحى، والطلاق».

---

(١) Encyclopedia of philosophy, Vol. 5 Mulla Sadra. 412

وأيضًا: أبو عبد الله الزنجاني، الفيلسوف الكبير صدر الدين الشيرازي، مجلة المجمع العلمي بدمشق، مجلد ٩، الجزء ١١، سنة ١٩٢٩م، ص٦٢٢.

٣- حواشي على شرح حكمة الإشراق[١]

وهي مجموعة حواشي قيمة على شرح حكمة الإشراق لشهاب الدين السهروردي، تظهر فيها دقة صدر الدين في الفلسفة، والإشراق والتصوف[٢].

٤- الحكمة العرشية

يتضمن هذا الكتاب تلخيصًا للمسائل المتعلقة بواجب الوجود تعالى وصفاته، وأسمائه، وأحوال البعث والحساب[٣].

٥- الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة

وهي المعروفة بـ «الأسفار الأربعة»، أو «الأسفار» اختصارًا من أروع الآثار الفكرية لصدر الدين وأشهرها، وأودع فيها المؤلف جميع نظرياته وأفكاره الفلسفية، وإضافة لما ضم دفتيه من نظريات فلاسفة الإغريق على اختلاف مذاهبهم، احتوى الكتاب أيضًا على نظريات أساطين الفلسفة الإسلامية، كما تضمن آراء كبار صوفية الإسلام ومفكريهم؛ ولهذا يعد هذا الكتاب بحق «من أدق الكتب في تاريخ الفلسفة الإسلامية عامة»[٤].

يتسم الكتاب بعمق عباراته ودقة معانيه، كما لا يخلو من غموض وتعقيد في بعض المواضع، ويظهر الاتجاه الفلسفي للشيرازي بوضوح في هذا الكتاب؛ إذ يجد المرء الفلسفة والتصوف والدين جنبًا إلى جنب، ولكن بأسلوب خاص ونمط معين، ولعل اسم الكتاب

---

(١) الشيخ محمد رضا المظفر: مقدمته لكتاب الأسفار للشيرازي ص (ش).

(٢) سيد جلال الدين آشتياني: في مقدمته لكتاب «رسائل فلسفية» للشيرازي، طبعة إيران ١٣٩٢ هـ ص٥٠.

(٣) سيد جلال الدين آشتياني: المصدر السابق، ص٥١.

(٤) علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦م (١/ ٥٦٣).

يوحي بشيء من ذلك؛ فالأسفار التي يعنيها صدر الدين هي المراحل التي يقطعها الصوفي في معراجه الروحي إلى الله تعالى، ولكن في نفس الوقت هي أسفار عقلية، يقول صدر الدين:

«واعلم أن للسلاك من العرفاء والأولياء أسفارًا أربعة:

أحدها: السفر في الخلق إلى الحق.

ثانيها: السفر بالحق في الحق.

والسفر الثالث: يقابل الأول لأنه من الحق إلى الخلق بالحق.

والرابع: يقبل الثاني من وجه؛ لأنه بالحق في الخلق، فرتبت كتابي هذا طبق حركاتهم[١].

ولأهمية هذا الكتاب فقد كتبت شروحًا عديدة لما أشكل منه بلغت تسعة[٢]، وأهمها شرح هادي السبزواري[٣]، والشروح كلها باللغة العربية.

٦- رسالة في اتحاد العاقل والمعقول[٤] .

ويثبت فيها اتحاد المدرك بالمدرك، أو العاقل بالمعقول.

---

(١) صدر الدين الشيرازي: الأسفار الأربعة، مقدمة المؤلف (١/ ١٣).

(٢) سيد جلال الدين آشتياني: مقدمته لكتاب رسائل فلسفية لصدر الدين الشيرازي ص٥٣.

(٣) هو هادي بن مهدي السبزواري (١٢١٢هـ- ١٢٨٩هـ) من أكبر شُرَّاح الشيرازي، برز في الفقه والحديث والفلسفة، ولد في سبزوار وتوفي بها، انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام (٩/ ٣٨).

(٤) الشيخ محمد رضا المظفر: مقدمته لكتاب الأسفار للشيرازي ص (ر).

٧- رسالة في اتصاف الماهية بالوجود

ويبرهن فيها على أن الوجود والماهية موجودان بوجود واحد.

٨- رسالة أكسير العارفين في معرفة طريق الحق واليقين

ويبحث فيها عن كمية العلوم وقسمتها، وبدايات الإنسان ونهايته، وخلود النفس.

٩- رسالة في التشخيص

وهي في إثبات أصالة الوجود، واعتبارية الماهية.

١٠- رسالة في الحدوث

يبحث فيها عن الحركة بأقسامها، ثم يذكر الحركة الجوهرية؛ لينتهي أخيرًا إلى إثبات حدوث العالم.

١١- رسالة في الحشر

يذهب فيها إلى إثبات الحشر لكافة الموجودات من «جماد- ونبات- وحيوان- وإنسان».

١٢- رسالة في سريان الوجود

ويبدو أنها من أوائل تصانيفه؛ حيث يذهب فيها إلى أصالة الماهية، واعتبارية الوجود، وهو الرأي الذي عدل عنه بعد ذلك، كما أشار إليه في الأسفار.

١٣- رسالة في القضاء والقدر

وتبحث عن معنى القضاء والقدر، ومسألة الجبر والاختيار وما يتعلق بهما.

١٤- رسالة مسألة القدر في الأفعال

تبحث عن حرية الإنسان، وهل هو مُسيَّر أم مخير؟!

١٥- رسالة في الواردات القلبية

وينهج فيها نهجًا صوفيًا كما هو واضح من عنوان الرسالة، ويبحث فيها عن المسائل الميتافيزيقية.

١٦- رسالة أجوبة المسائل[١]

يجيب فيها على أسئلة بعض تلاميذه، وتدور حول العلة الغائية، والجوهر والأعراض.

١٧- متشابهات القرآن

وهي رسالة تدور حول المُحكم والمتشابه، وبحوث قرآنية أخرى.

١٨- المسائل القدسية

وهي من رسائله القيمة، يبحث فيها عن الوجود وأقسامه، ثم الوجود الذهني وتجرد الخيال.

١٩- أجوبة المسائل الجيلانية[٢]

وهي ردود لأسئلة شمس الدين الجيلاني تلميذ الداماد.

---

(١) سيد جلال الدين آشتياني: مقدمته لكتاب «رسائل فلسفية» للشيرازي ص٤٥.

(٢) المصدر السابق ص٤٦.

٢٠- رسالة أجوبة المسائل النصيرية [١]

وهي ردود للأسئلة التي وجهها نصير الدين الطوسي لأحد معاصريه، وظلت دون جواب.

٢١- رسالة في التصور والتصديق

وهي في المنطق.

٢٢- رسالة خلق الأعمال

ويتعرض فيها للقضاء والقدر، ومشكلة خلق الإنسان لأفعاله.

٢٣- رسالة في المعاد الجسماني [٢]

يثبت فيها المعادين: الجسماني، والروحاني.

٢٤- شرح أصول الكافي

وهو شرح فلسفي لكتاب الكافي في الحديث.

٢٥- شرح الشفاء

وهو شرح قيم على إلهيات الشفاء لابن سينا.

٢٦- شرح الهداية لأثير الدين الأبهري

ويسلك فيه نهجًا نظريًّا بحتًا.

---

(١) المصدر السابق، ص٤٦.

(٢) المصدر السابق: ص٤٦.

٢٧- الشواهد الربوبية في المناهج السلوكية

ويتألف من خمسة مشاهد، ويعتبر هذا الكتاب اختصارًا لموسوعته «الأسفار»؛ حيث أودع فيه الشيرازي جميع آرائه ونظرياته، ولكن باختصار.

٢٨- كسر أصنام الجاهلية

وهو في رد من يتظاهر بالتصوف، ويتخذه وسيلة لقضاء مآربه.

٢٩- رسالة في الألواح المادية[١]

ويبدو أنها تبحث في البعث والمعاد.

٣٠- المبدأ والمعاد

وهو من آثاره النفيسة في الفلسفة والتصوف، وينقسم إلى فنين:

الأول: ويتضمن مباحث الوجود وتفريعاته، وإثبات واجب الوجود، وبيان صفاته وأفعاله وأسمائه.

الثاني: ويبحث فيه عن نشوء النفس الإنسانية وقواها، وخلودها، وإثبات المعاد الجسماني، وأحوال النشأة الثانية، ثم يتطرق إلى إثبات النبوة، ويسلك الشيرازي في هذا الكتاب المنهج السائد في عصره دون التعرض لفلسفته هو.

٣١- المزاج[٢]

ويبحث فيه عن الفرق بين النفس والمزاج.

---

(١) الشيخ محمد رضا المظفر: مقدمته لكتاب الأسفار للشيرازي، ص (ش).

(٢) المصدر السابق: ص٦٧.

٣٢- المشاعر

ويبحث فيه عن الوجود وأصالته، ويأتي بعدة براهين على ذلك، ثم يبطل الأدلة التي أقامها السهروردي على أصالة الماهية، ويناقشها ويكشف عن ضعفها، ويرد على اعتراضاته، ثم يتكلم عن الحركة الجوهرية.

٣٣- المظاهر الإلهية

ويبحث فيه عن الحق تعالى وصفاته وأسمائه، والمعاد الجسماني، ثم يتكلم عن النبوة ووجوبها، والرد على منكريها.

٣٤- مفاتيح الغيب

هو كتاب فلسفي صوفي قيم يبحث فيه الشيرازي عن القرآن الكريم، وما يتعلق به من أسرار وحكم، ثم يتكلم عن مراتب الكشف والإلهام، وعن الحق الأول، وحدوث العالم والإنسان منذ نشأته وحتى بعثه، والواقع أن نهج صدر الدين في هذا الكتاب أقرب إلى التصوف منه إلى البحث النظري المجرد، كما يدل عليه اسمه.

ثالثاً: مكانته

يصنف بعض الباحثين فلسفة الشيرازي بأنها جماع أو مزيج من عدة مصادر مختلفة يجتمع فيه الفكر الفلسفي اليوناني متمثلًا بشكل خاص في فلسفة كل من أفلاطون وأرسطو، ذلك إلى جانب ما استمده من فلاسفة الإسلام، وعلى رأسهم: ابن سينا، والغزالي، وما استفاده من الصوفي الكبير محيي الدين بن عربي وشيخ الإشراق شهاب الدين السهروردي.

لكن مذهب الشيرازي ليس فقط مجرد نقل نظريات هؤلاء المعلمين، بل إنه يريد تجديد فكر ابن سينا[١]؛ إذ نفخ في رميم مذهبه، وأعاد إليه شبابه في العصر الذي عاش فيه، وألبسه حلة مكّنته من أن ينتشر في جميع مدارس إيران، واستطاع أن يفسح لمذهبه الفلسفي موطنًا بجانب تعاليم الدين، ولولا خدمته العلمية لكاد نجم الفلسفة يغرب وراء ظلمات الغزوات المغولية، وعُشَّاق الفلسفة مدينون لهذا الفيلسوف الكبير، وحقًّا يعد معلمًا كبيرًا للفلسفة في إيران بعد ابن سينا الآن[٢].

هذا هو الشيرازي لما وصفه الزنجاني، وهناك العديد من الباحثين الذين شهدوا له بالفضل وعظيم المكانة، فمثلًا يعتبره الدكتور مصطفى حلمي أجل فلاسفة العصر الصفوي شأنًا، وأعظمهم خطرًا، حتى لقد بلغ من دقة البحث وعمق التفكير وطرافة التحقيق مبلغًا جعله في منزلة تأتي بعد منزلة كل من أرسطو، وابن سينا[٣].

ويعده برون أعظم فلاسفة العصر الحديث في بلاد الفرس[٤].

---

(١) Horten, M. Das philosophische System Nov. Sehirazi Strassbur 1913. 202p.

(٢) الزنجاني: الفيلسوف الفارسي الكبير، ص٣١.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية: مادة الشيرازي، حياته ومصنفاته، بقلم د. مصطفى حلمي، (١٤/ ٢٦).

(٤) Broune, E.G: Alittersry History of Persia. Cambride 1926. IV.408P.

ويقول عنه هورتن: «إنه أحد الكبار المجهولين في تاريخ العقل الإنساني»[١].

ولكن على الرغم مما ناله الشيرازي من تقدير وما حظي به من إعجاب، إلَّا أنه تعرض لحملة قاسية من النقد والتجريح، وخاصة من قبل خصومه من رجال الدين الذين رأوا في كلماته بعض العبارات التي يشم رائحة الكفر والخروج عن الدين؛ منها مسألة: «عقاب الآخرة» التي يذهب فيها الشيرازي إلى رأي غريب يخالف ما جاء في الكتاب والسُّنَّة؛ حيث يرى أن العذاب ينقطع عن أهله بعد مدة تساوي مدة أعمارهم في الدنيا، بعدها ينعم أهل النار بعذابها، ويتلذذون بما هم فيه من نار وسعير.

ويقول في ذلك:

«يدخل أهل الدارين فيها السعداء بفضل الله وأهل النار بعدل الله، وينزلون فيها بالأعمال، ويخلدون فيها بالنيات؛ فيأخذ الألم جزاء العقوبة موازيًا لمدة العمر في الدنيا، فإذا فرغ الأمد جعل لهم نعيمًا في الدار التي يخلدون فيها؛ حيث إنهم لو دخلوا الجنة تألموا؛ لعدم موافقة الطبع الذي جبلوا عليه، فهم يتلذذون بما هم فيه من نار وزمهرير، وما فيها من لدغ الحيات والعقارب، كما يتلذذ أهل الجنة بالظلال والنور، ولهم الحسان من الحور»[٢].

يُفْهَمُ من هذا النص الذي أورده الشيرازي في الشواهد: أنه لا ينكر الخلود في الألم والعذاب، كما يُفْهَمُ منه أيضًا أنه لا انتقال من نار إلى جنة؛ لأن طبيعة أهل العذاب توافق طبيعة أهل النار، كما أن طبيعة أهل النعيم توافق طبيعة الجنة؛ لذلك فإن انتقال أهل النار إلى الجنة يعد مخالفة لطبيعتهم التي جبلوا عليها.

كذلك أخذ عليه خصومه بعض العبارات التي تفيد القول بمذهب وحدة الوجود، فالله -واجب الوجود، أو الوجود الحقيقي- عنده كل الوجود، وهو أبسط الحقائق، وكل

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية: مادة الشيرازي، بقلم ماكس هورتن، (١٤/ ٢٤).

(٢) الشواهد الربوبية: ص٢٢١.

بسيط الحقيقة من جميع الوجود فهو بوحدته كل الأشياء[١]، وإذا كان الله تعالى هو كل الموجودات فإن سائل الممكنات في ذات الوقت موجودة بالانتساب إليه، والارتباط به.

يقول الشيرازي مؤيدًا مذهبه:

«إن للموجودات -من حيث إنها موجودة- جهة واحدة هو الوجود الحقيقي (الله) الذي به يرتبط جميع الموجودات بأنفسها، ولا تكون أمورًا مباينة لذات الوجود الحقيقي تباينًا حقيقيًا، بل كأنها نعت من نعوته، وليست هي أشياء بأنفسها»[٢]، وكل ما يقع عليه اسم الوجود ليس إلَّا شأنًا من شئون الواحد القيوم[٣].

ولكن ليس ارتباط الممكنات بالله تعالى عند صدرا نسبتها إليه بالحلول والاتحاد، بل كأنها ارتباط يشبه الصلة بين الروح والبدن مع تجردها وتنزهها عنه، فكما أن الروح لا يلحقها أي تأثر مادي عند ارتباطها بالبدن، فكذلك الوجود الحقيقي لا يناله تغير أو نقصان إذا وجد في الممكنات.

هذه بعض العبارات التي رأي فيها خصوم الشيرازي تصريحًا بمذهب وحدة الوجود، ووجدوا فيها منفذًا للنيل منه، ذلك إلى جانب ما وجدوه في مسألة العقاب الأخروي من أفكار تخالف نصوص الشريعة، فكان أن رموه بالكفر ووصفوه بالضلال.

ولكن ذلك لا ينبغي أن يقلل من شأن الشيرازي، أو يغض من أهميته بين مفكري الإسلام، وخاصة أنه وجد في مقابل هؤلاء الخصوم العديد من الأنصار الذين ذكروه بالفضل.

---

(١) المصدر السابق: ص٣٣.

(٢) رسالة سريان الوجود: ص٤.

(٣) محمد بن محمد صادق: شرح كتاب المشاعر ص١٣١، مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية رقم: ١١٧٩٦ (فلسفة)، وترجم الكتاب إلى اللغة الفرنسية، هنري كوربان، ونشر في باريس بتاريخ ١٩٦٤م.

وقد ذكرنا بعضًا منهم، وأيضًا يجب أن نضع في الاعتبار أن صفحات التاريخ -ولا سيما التاريخ الفلسفي- تطلعنا على أن أكبر رجاله وعظمائه لم يسلموا من تشنيع الخصوم وهجوم المعارضين، ويكفي دليلًا على أهمية الشيرازي وأثره الباقي حتى وقتنا هذا: أنه ترك وراءه العديد من التلاميذ والأتباع الذين ينتمون إلى مدرسته في إيران، من أشهرهم: الملا محسن الفيض (ت ١٦٨٠)، وعبد الرزاق لاهيجي (ت ١٦٦٢)، وملا هادي السبزواري أكبر شارح لكتب صدرا (ت١٨٧٨)، ونعمة الله شستري (ت ١٦٩١)، وغيرهم من التلاميذ والأتباع.